جمهورية العراق

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة ديالى

كلية التربية للعلوم الانسانية

قسم اللغة العربية

شعر الكتَّاب في القرن الخامس الهجري

دراسة تحليلية

رسالة مقدَّمة الى مجلس كلية التربية للعلوم الإنسانية/ جامعة ديالى

وهي جزء من متطلبات نيل شهادة الماجستير في اللغة العربية وآدابها

من الطالبة

اسماء كامل منصور

بإشراف

الأستاذ الدكتور

علي متعب جاسم

١٤٤٢هـ ٢٠٢٠ م

الفصل الأول : الأغراض الشعرية (التقليدية)

ونقصد بالأغراض التقليدية هي الأغراض التي ورثها الشاعر العربي عن أسلافهِ الشعراء, وأهم ما يميزها محافظة الشعراء الكتَّاب على البناء الفني لهيكل القصيدة العربية, وكذلك فعلوا مع الأغراض الشعرية التي خاضوا غمار النظم فيها تبعًا لعصرهم مع مواكبة الموضوعات المستجدة, فكانت مدائحهم تخاطب واقعهم السياسي على وجه الخصوص, وكذا الحال مع هجائهم, ورثائهم, والفنون الأخرى التي ساروا فيها محافظين على روح القصيدة العربية القديمة, فكان من أبرز الأغراض التي نظموا فيها من خلال تفننهم وتوظيفهم الأغراض الشعرية تتمثل بما يأتي :

أولًا: المديح:

يُعدّ المديح غرضًا تقليديًا بارزًا منذ العصور القديمة, مَثّل ظاهرة من الظواهر المعروفة في الشعر العربي بصورة عامة, فعلى الرغم من احتفاظه بكثير من الصفات المعروفة منذ العصر الجاهلي, ألا أنه بقيت له مكانة متميزة في الشعر[١].

والحقيقة أن " المديح هو تمجيد للمثل العليا التي يعتز بها المجتمع, فالمديح إذًا تعداد لجميل المزايا ووصف الشمائل الكريمة والتقدير العظيم الذي يُكنّه الشاعر لمن توافرت فيه تلك المزايا وعرفوا بها "[٢]. اي أن المديح غرض لذكر الصفات الحسنة وإضفائها على الممدوح والتغني بها, التي تعدّ صورة بارزة للمثل العليا ووصفها بطريقة تختلف من نظم شاعر إلى آخر.

---

[١] – ينظر: التوجيه الأدبي, طه حسين, أحمد أمين, د. عبد الوهاب عزام, د. محمد عوض محمد, المطبعة الأميرية بالقاهرة: ١٩٥٢: ١٦٨.

[٢] –الشعر في الموصل إبان القرنين الرابع والخامس للهجرة, د. علي غانم سعد الله الذنون, ط ١, دار غيداء للنشر والتوزيع, عمان– الأردن: ٢٠١٤: ١٣٦.

وتأثر غرض المديح في العصر العباسي بالحياة الجديدة آنذاك, فقصائد الشعراء الكتّاب في العصر العباسي تأثرت بشكل كبير بنمط الحياة الجديدة, وعدّ غرض المديح من الاغراض التي تم تحديثها في هذا العصر, دعت التغيرات في نمط الحياة الشاعر إلى التفكير على وفق هذا النمط الجديد وضمن الظروف الجديدة, فأصبح الشعر يعكس مظاهر تلك الحياة بصورة عامة[1], وهو على أنواع, ورد منه في شعر الكتّاب ما يأتي :

١- مدح الملوك : وقد تمثّل في مدح كثير من الشعراء لملوكهم متغنين بأسمى الصفات التي عُرفوا بها مثل الشجاعة, والكرم, وإبداء الرأي, وإنهاء النزاعات, وترسيخ تلك القيم في نفوس الآخرين, ومدح أفعالهم بوساطة أشعار الشعراء.

يقول أبو سعد العلاء بن الحسن بن وهب الموصلايا بمدح نظام الملك الطوسي[2]:

وكيف أخافُ الضيــم أو أحذر الردى وَعَوني على الأيام أبلجُ وضـــاحُ

وظِلٌّ نــظام الــملكِ للكسرِ جابـــر وللــضرّ مـنّـــــاعٌ وللنفع منّاحُ

مدح الموصلايا نظام الملك الطوسي بوساطة معنى التعجب الذي خرج اليه من كيفية الخوف بوجود الملك الطوسي الذي صار في هذا المقام رمز العون, ويصفه بأنه – اي الملك الطوسي- ملجأ له من الضيم والقهر, أو يحذر الموت, وهو خير معوان له, إذ جعل الموصلايا ظل الملك كافيًا لجبر الخواطر, ومنع وقوع الضرر وبالمقابل منح النفع, والخير وهذه من أسمى سمات الملوك وأروعها.

---

[1] – ينظر: شعر المصابين في العصر العباسي حتى نهاية القرن الخامس الهجري – دراسة موضوعية فنية – علي احمد خليل الجبوري, رسالة ماجستير, جامعة آل البيت/ كلية الآداب: ٢٠١٦: ٢٦.

[2] – رسائل أمين الدولة ابن الموصلايا: العلاء بن الحسن بن وهب أمين الدولة أبو سعد بن ابي علي الكاتب البغدادي, تحقيق د. عصام مصطفى عبد الهادي عقلة, ط ١, مركز زايد للتراث والتاريخ- العين- الأمارات العربية المتحدة: ٢٠٠٣: ٢ / ٤١.

وكتب مهيار الديلمي إلى زعيم الملك أبي الحسن يهنئه ويشكر رعايته للرعية بالبذل والكرم مادحًا إيّاه بقوله[1] :

وهل عن زعيم الملك في الناس عائضٌ إذا كشفت مخبوءةٌ عـن خِـدامِـهـا
سـلالةُ مـــــجدٍ زاد فيهـــــا قرائُـــها كمـا الـــكرمُ معنىً فضله في مُدامِها
ترقّــت بـــه هِمّـــــاته قبـــل سِنّـــه إلـــى ذروةٍ خـــلّوا له عن سنامِـــها

مدح الديلمي الملك أبا الحسن بأسلوبٍ كان الهدف منه تأكيد صفة الواعظ لزعيم الملك ونفيها عن غيره, هل من مبلغٍ للناس أن زعيم الملك, ينحدر من سلالة يقترن المجد بها, مؤكدًا ذلك أنه لا يوجد بديل لأبي الحسن ملكًا, أو زعيمًا فهم من سلالة تنحدر منها العزة, والكرامة, والمجد, والكرم, والشجاعة, إذ كانت بوادر الزعامة ظاهرة فيه منذ صغر سنه فقد اقترنت به إلى درجة لا ينافسه فيها أحد .

٢- مدح الوزراء: وهم الفئة التي تكون أقربهم صلة بالشعراء والعامة من الناس, وأكثرهم اتصالًا بالشعراء من الملوك, والخلفاء." وظاهرة مدح الوزراء أتضحت بشكل لافت في العصر العباسي حين لجأ الشعراء إلى مدح وزراء الخلفاء, فغالبية وزراء العصر العباسي نالوا نصيبًا من المدح على ألسنة الشعراء طلبًا للعطايا, فقد كانت بأيديهم أموال الدولة, وكانوا ينثروها دعاية لهم"[2]. فالشاعر في العصر العباسي يمدح الوزير من أجل دوافع شتى قد تكون لدوافع مادية مثلًا .

---

[1] - **ديوان مهيار الديلمي, شرحه وضبطه : أحمد نسيم, ط١, مؤسسة الأعلمي للمطبوعات, بيروت – لبنان: ١٩٩٩: ٣ / ٣٢٧.**

[2] - **صورة الممدوح في أزجال ابن قزمان, محمد عبد المنعم حمدان صوالحة, رسالة ماجستير , جامعة النجاح الوطنية, نابلس- فلسطين: ٢٠١٣: ١٤.**

ومنها ما نظمه صرّ درّ بمدح الوزير أبا نصر محمد بن محمد بن جهير, ويهنّئه بوزارته للخلافة يقول[1] :

أعدَت إلى جسم الوزارة رُوحهُ وما كان يُرجى بعثها ونشورها

مدح الشاعر صرّ درّ الوزير ابا نصر فكأنما يقول للوزير بعودتك قد أصلحت ما أفسده الحكام قبلك, ولم يُرتجَ من بعدها اصلاح, وقد قويت دولته بعد ما عمها الوهن, وأصبح لسلطانه قوة ومنعة.

ومهيار الديلمي يقول في مدحه للعمدة ابن الصاحب[2]:

كـأنـــني عُجْبـًا بـه وشَـعَـفًا مـــحبةُ الـعمدةِ فـي حُبّ العـلا

شَـمَّـرَ للـمجدِ ومـا تـــشمَّرتْ لـــه السنونَ, يافعٌ كهلُ الحجا

وقــام بـالـــــرأي فـكـان أوّلٌ مـــن رأيــه وآخرُ الحــزمِ سَـــوَا

ســما إلـــى الـغاية حتى بَلَـغَتْ همّتـُهُ بـــه الـسمـــاءَ وسمـــــا

فـــابن الملـوك بالـملوك يَقْتدِي وابـــن البحـار بالـــبحار يُبْتَغَى

إذ مدح مهيار الديلمي العمدة ابن الصاحب متعجبًا من محبته له, ويصف هذه المحبة بالعلا ؛ وذلك لمكانة العمدة في قلبه, ويمدحه انه قد شمر للمجد فعلى الرغم من كونه شابًا في مقتبل العمر إلّا انه ذو نباهة, وعقل راجح, فكلما يريد شيئًا يناله, فابن الملوك هو دائمًا همته أن يقتدي بالملوك لا غيرهم, وما دام العمدة بن الصاحب ملكًا ابن ملك, إذًا لابد من أن يتصف بالشجاعة؛ لأنها سمة موروثة عن والده, كما هو الحال مع ابن البحار الذي يتصف بروح المغامرة؛ بوصفها سمة يتصف بها والده وهذا من أروع ضروب التشبيه, فنراه يمدحه بالشجاعة وهي من المعاني المطروقة قديمًا التي كان الشاعر يشيد بها بممدوحه.

---

[1] – **ديوان صرّ درّ, الرئيس ابي منصور علي بن الحسن علي بن الفضل, ط٢, مطبعة دار الكتب والوثائق المصرية: ٢٠١٠: ٦٠.**

[2] – **ديوان مهيار الديلمي: ١ / ١١-١٢ .**

٣- مدح شخصيات سياسية: وهي الشخصيات التي تقلدت مناصب في الدولة, وقام عدد من الشعراء بمدحهم لأغراض تكسبية, وتتمثل بقول صرّ درّ في رئيس الرؤساء أبي القاسم بن المسلمة مادحًا إياه[١]:

مجدٌ أطلَّ على الزمان وأهـــلِهِ متقّيـلٌ في ظلّـــــه الثَّقَلانِ

ومفاخرٌ مشهودةٌ يَقضِى لـــها يـــومَ النفار سواجِـعُ الكُهّانِ

من ذا يجاذبه الفخارَ وقد لـوى أطنابَـه فـــي يَذبُـــلٍ وأبـــانِ

وصف صرّ درّ رئيس الرؤساء أبا القاسم, بأن زمانه وعهده كان زمان العزة والانتصارات حتى لكأنّ الجبال تقيل في ظلال ذلك المجد , حتى أن الحروب التي كان يخوضها كانت تستنفر لها دعوات تشجيع الكهنة, وهو بذلك حاز على فخرٍ أمتد وأتسع, ولم ينافسه في ذلك الفخار أحد.

أما الباخرزي فقد نظم أبياتًا مدح فيها العميد الكندري في حلق لحيته وجبّ مذاكيره ليخلص من أرجاف الناس إذ يقول[٢]:

طـــابَ الـعَميدُ الـكندريُّ شَمـــــائِلا حتى أسْتَعارَ الروضُ منهُ مَخـــــائِلا

يُدعى أبا نصرٍ, وصُنـــــع الله نـا صرُهُ, أخَيّم أمْ توجّـــــهَ راحِـــــــلا

طمِـحَتْ إلى خوارَزْمَ همّتُهُ كـــما سلك الهِزبرُ إلـــى العَرينِ مَداخـــلا

مدح الباخرزي العميد الكندري بأنه حلو الشمائل والصفات, وأنك إذا أردت أن تتخيل الصفات والمزايا لروضة غنّاء فيكفي أن تنظر في صفات العميد الكندري,

---

[١] – ديوان صرّ درّ: ١٠-١١ .

[٢] – علي بن الحسن الباخرزي: (حياته وشعره وديوانه) , تأليف وتحقيق: محمد التونجي, منشورات الجامعة الليبية/ كلية الآداب: ١٧٢.

والله ناصره وأن همته كانت أن يتوجه إلى مدينة خوارزم, حتى أنه شبهه بالأسد حين يدخل إلى عرينه, كأنما يفخر بالعودة إلى دياره وهي خوارزم.

وأبو العلاء عطاء بن يعقوب الغزنوي مدح العميد أبا سهل الجنيدي عندما كتب قصيدة إلى العميد أبي بكر بن بندار, فكتب قصيدة له جوابًا عنها مادحًا نظمه قائلًا[1]:

نـظمك الـمعجزُ المباركُ فالا قد سقانا مـن عينـه سَلسـالا

فـروينا مـا رويـنا ولـكـن قـد سقينا بهـا القلوب النّهـالا

واجتنينا لآلىء الـعقد مـنـه واجتلينا السـعودَ والاقبـالا

رقّ لـفظًا فقيل: خمرٌ حرام راقَ معنىً, فخيـلَ سِحرًا حـلالا

فمدح الغزنوي نظمه, وشبهه بأنه كان خير نظم, فكأن نظمه أشبه بالخمرة, فعلى الرغم من قراءته له ولكنه لم يروِ عطشه, وذلك لشدة جمال نظمه, ولكن بالمقابل قد نهل القلب منه وأفاد, وبالإضافة إلى ذلك فقد حصل أيضًا على اللآلئ أي كأن نظمه يشبه الأحجار الكريمة, فالألفاظ رقيقة والمعاني أرق فكأنما تلك كانت كالسحر في بيانه .

أما إبن أبي الصقر الواسطي, فقد نظم في مدحه لبني مزيد لدفاعهم عن مدينته واسط قائلًا[2] :

ظفرَ الله بالعـداة الأميرا مثلمـا ظـفر البشيـرَ النذيرا

١- دمية القصر وعصرة أهل العصر, علي بن الحسن بن علي بن ابي الطيب الباخرزي, تحقيق ودراسة د. محمد التونجي, ط١, دار الجبل, بيروت – لبنان: ١٩٩٣: ٢ / ٩٤٢.

٢ – شعر ابن ابي الصقر الواسطي: د. بلقيس خلف رويح, دار الكتب والوثائق ببغداد: ٢٠١٦: ١٨.

مختتمًا إيّاها بقوله :

يا بني مــزيدٍ لأيــامنا دُمــــ تـم شمـــــوسًا ولليـالي بُدورا

يا بني مزيــد غُيـوثًا بـــقيتم وليـــــوث الشّرى أمــيرا أميرًا

مدح الواسطي بني مزيد بأسلوب الدعاء إلى الله بأن يؤيد بني مزيد بنصره, مثلما نصر النبي محمد (صلى الله عليه وسلم), مادحًا بني قومه من مدينة واسط, وسائلًا المولى عزّ وجل أن يديمهم, واصفًا شجاعتهم بأسود الغاب .

وجدنا الشعراء الكتّاب كانوا في مديحهم يهنئون الخلفاء, والوزراء في تقلدهم للمناصب, أو لتهنئتهم بمناسبة, أو ما شابه ذلك, وبعضهم من وصف عطاءَهم الوفير لكثرته بالماء.

٤- مدح شخصيات دينية :والمتمثلة في مدح الشعراء لآل البيت (رضي الله عنهم), وأصحابهم, وخلفائهم, بذكر قيمهم الأخلاقية والإنسانية, وذكر خصالهم الحميدة, فنجد الشعر لهذه الطائفة خصوصًا يمتاز بصدق العاطفة, يضاف إلى ذلك الانفعال, والحماسة, والبساطة في الأسلوب المستعمل, والتعبير الصادق لمحبة آل البيت الأطهار[١].

وقد مدح الحسن بن عبد الصمد إبن أبي الشخباء العسقلاني الرسول الأعظم محمد (صلى الله عليه وسلم) قائلًا[٢] :

مـا زال يختار الزمـــان ملـــوكه حتى أصـابَ المصطفى المــتخيرا

قل للأُلى ساسوا الورى وتقدموا قدُمًا هلمـــوا شـاهِدوا المتـــأخرا

---

[١] – ينظر: الشعر في الموصل إبان القرنين الرابع والخامس للهجرة: ١٥١.

[٢] – وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان, لابي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن ابي بكر بن خلكان, تحقيق: د. إحسان عباس , ط ٥, دار صادر بيروت – لبنان : ٢٠٠٩: ٢ / ٩٠.

تجدوه أوسع فـي السيـاسة منكـمُ صَدرًا وأحمد في العـواقب مَصـدرا
إن كـان رَأيٌ شـاورِوهُ أحـنفا أو كـانَ يـأس نـازلـوهُ عنـترا
قد صـامَ والحسناتُ ملء كـتابـهِ وعلى مِثـال صِيامـه قـد أفـطـرا

وصف الشاعر أن الزمان يختار رجاله , وهنا يوجه أنظارنا مادحًا الرسول الكريم محمد (صلى الله عليه وسلم), ومخاطبًا الذين حكموا فيما مضى, وقادوا العالم بأن ينظروا إلى هذا القائد مفتخرًا به مادحًا إيّاه بأنه أوسع حنكة بالسياسة منكم, ان رأيتم منه صاحب رأيٌ فهاتوا أفضل من عندكم بمشاورته, أو رأيتموه ذا بأسٍ فقدموا من ينازله كـ (عنترة بن شداد).

أما أسعد بن أحمد الزوزني المعروف بالبارع يمدح أبا بكر الصديق (رضي الله عنه) بقوله [1] :

أبـو بكر حبـا فـي الله مـالا أكـان لـسانُهُ يـجـري بلالا
لـقد واسـى الـنبيَّ بـكـلّ خيرٍ وأعـطى من ذخـائره بـلالا
لـو أن السَحـر أبغضه اعتقادا لـما أعطـى الإلـه له بـلالا

وصف الزوزني سيدنا أبو بكر الصديق (رضي الله عنه), مادحًا إيّاه عندما تصدق بماله لله تعالى, وأعتق سيدنا بلال الحبشي (رضي الله عنه), فهو قد قدم المواساة للنبي الكريم محمد (صلى الله عليه وسلم), ووقف معه فكان له خير معين وسند.

١- معجم الأدباء إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب, ياقوت الحموي الرومي, تحقيق : د. إحسان عباس, ط ١, دار الغريب الإسلامي, بيروت – لبنان: ١٩٩٣: ٢ / ٦٣٢.

أما الباخرزي فنجده في أكثر قصائد المديح يبدأ بمقدمات غزلية, وطلليه تقليدًا للشعراء الأقدمين, ويتمثل ذلك في مدح الشريف ذا المجدين أبا القاسم علي بن موسى بن إسحاق بن الحسين ...., علي بن أبي طالب (عليهم السلام) نقيب الطالبيين بمرو[1]:

حبا مـن تـحت ذَيـل الحـبـــيّ شـعاعٌ كـحـاشية الـمَـشرفـي

أعـــــاد طــراز رداء الـــهوى ولـكن تـردّى وشيـــك الـهَوِيّ

وأطــلع في جُنح لـــيلِ الـسّحابِ صباحًا مُضيًّا وشيك الـــمضُيّ

هــي الــنار تُـعبد لا للـصّــلاةِ إلــيها, وتُعـمدُ لا للصّـلـــــيّ

مدح الباخرزي الشريف ذا المجدين, ووصفه بأنه برز من تحت السحاب, أي أنه ظهر في وقتٍ كثر فيه الظلم, كشعاع يمثل حاشية السيف, ووصف بأنه أعاد هيئة الحب آنذاك, على الرغم من شيوع الفساد, والجهل, فقد بزغ العدل والحق كفجر الضياء , أي عندما أشرق الإسلام بنوره أضاء الجزيرة العربية وقد أنتشرت الصفات الحميدة والمثل العليا فقد أضحى شعر المديح يصف الممدوح بالهدى, والتقى, واتّباع تعاليم الدين الإسلامي, فضلًا عن ذلك كله الصفات والأخلاق القويمة التي وجدت من خلق رفيع, وبطولة, وشجاعة, وكرم, فنجد الشعراء يتسارعون في مدح رسولنا الأعظم محمد (صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم), وآل بيته الأطهار (رضوان الله عليهم), فهم رجال الحق وجند الله, فرسولنا الكريم محمد (صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم), نورٌ اضاء الظلام[2].

١ – الباخرزي (حياته وشعره وديوانه): ٢١٤.

٢ – ينظر: الشعر في الموصل إبان القرنين الرابع والخامس للهجرة, د. غانم سعد الله الذنون : ١٣٧.

إختلف المديح لدى الشعراء باختلاف البيئة والعصر الذي به الشاعر, فنجد الشاعر يمدح أو ينظم الشعر ويواكب حركة التطور في العصر الموجود فيه, فنحن نعرف جيدًا أن غرض المديح في الأغلب سابقًا كان تكسبيًا من أجل الحصول على العطايا, والهبات من الخلفاء, والامراء, والوزراء, كما في شعر المناسبات الذي كان يقال لمناسبة عابرة, فنجده غير صادق, وغير نابع من القلب, أي أن القصيدة تنتهي بانتهاء تلك المناسبة, أي من أجل الحصول على المال, والتكسب بالشعر.

٥- مديح الأماكن: والمقصود به قيام بعض الشعراء بمدح بعض الأماكن؛ لما لها من خصوصية في قلوبهم قد تكون لأسباب قدسية, أو لأنها أماكن ولدوا وترعرعوا بها وغادروها لأسباب مختلفة, أو لأنها أماكن يهواها الشاعر حيث يسكن الحبيب.

من شعر الكاتب علي بن محمد بن خلف النيرماني في مدحه للعاصمة بغداد بقوله[١] :

فِـــدىً لكِ يـــا بغـــــدادُ كُلّ مدينةٍ من الأرض حتى خِطتّي وديارِيـــــا

فقد طفــتُ في شرقِ البـــلادِ وغربها وسَيّرتُ خيــلي بينها ورِكـــابـــــيا

فَلَم أرَ مثل الكَـــرخ في الأرضِ منزلًا ولَـــم أرَ فيها مـثل دِجلةَ واديـــــا

ولا مثــلَ أهليِهــا أرَقّ شمـــــــائلًا وأعــذب ألفاظًا وأحـلى مغَـــانيــا

فقد تغنى الشاعر بالمدينة الحبيبة بغداد, ومدحها بأرق المعاني, وأعذب الألفاظ, ويقول النيرماني قد جلتُ في مختلف أصقاع البلاد فلم أجد مثل الكرخ منزلًا, كذلك أنه لم ير أي نهر مثل دجلة, واصفًا أهل بغداد بالرقة, وألفاظهم العذبة, وهذا خير دليل على أخلاقهم الرفيعة, وشيمهم الفريدة.

١- المنثور البهائي, ابي سعد النيرماني علي بن محمد بن خلف, تحقيق: د. علي براهيم كردي, منشورات الهيئة السورية للكتّاب, دمشق – سوريا : ٢٠١٣: ٧.

٦- مدحيات أخرى : وهي قصائد قيلت في مناسبة ما, ولم أجد مثيلًا لهذه المناسبة, أو الحادثة لجعلها منفصلة, لذا درجتها تحت عنوان (مدحيات أخرى).

وغرض المديح تعددت صوره واختلفت ألوانه. وقد اشتمل على :

أ- المدح الاخواني :

يتمثل المدح الإخواني بمدح الشاعر للصديق, أو الخِل, بصفات حسنة واصفًا فيه أخلاقه النبيلة, أو ربما حسن كرمه, أو حسن ضيافته وإيثاره على نفسه, ونجد هذا النوع من المدح دارجًا في أشعار شعراء مختلف العصور.

ومنها ما نظمه محمد بن علي بن الحسن إبن أبي الصقر الواسطي في المدح الإخواني مقطوعة يقول فيها[١]:

خَلِيْلَيَ الَّذِيْ يُحْصِي عَلَيَّ مَحَاسِنِيْ فَأَكْرِمْ بِذَاكَ الْخِلِّ مِنْ مَاجِدٍ مَحْضِ مُحْـصِ

وَإِنْ لَامــهُ فِيْ خلَّتِي ذُوْ عَـــدَاوَةٍ فَأَجْدِرْ بِهِ فِيْ ذَلكَ الْوَقْتِ أَنْ يُغْضِي يُعْصِي

يَزِيْدُ عَلَـى الْأَيَّامِ حِفْـظَ مَـــــوَدَّةِ بِهِ آمَنَتْ وَالْحَمْـدُ للهِ مِــنْ نَقْـضِ نَـــقْصِ

ذكر إبن أبي الصقر الواسطي الصديق المقرّب الذي يحصي عليه المحاسن من دون المساوئ, ووصف صديقه بالكمال, والكمال لله عز وجل تنزه عن النقص والتشبيه؛ لأنه حفظ له المودة.

١ - شعر ابن ابي الصقر الواسطي, د. بلقيس خلف رويح: ١٩.

ب- مدح شخصية أدبية:

والمتمثل بمدح أبي الفضل الميكالي عبيد الله لابي منصور الثعالبي إمام الادب صاحب يتيمة الدهر بقوله[1] :

أخ لـــيَ, أمّـــا الـــودّ منه فـــــــرائد وألـــفاظه بين الـحديث فـــــرائد

إذا غاب يومًا لـــم ينب عـــنه شـاهد وإن شـــهد ارتاحت إليهِ المشاهد

ذكر أبو الفضل الميكالي مادحًا الثعالبي, واصفًا كلامه وألفاظه بأنها من الفرائد والنفائس, اي من الخصال النادرة, فلم يتصف بها أحدٌ غيره, بدليل قوله: إذا غاب ولم يره فلن يحل محله أحد, وأن حلّ ارتاحت إليه الأعين.

فغرض المديح يمثل فنًا من فنون الأدب العربي البارزة, وقد أضاف ورسم صفات عدة على سبيل المثال مدح وزير, أو خليفة, أو مدح بشجاعة الأقوام التي دافعت عن مدنها والتغني بها, ومن ثّم نجد غرض المديح يختلف من شاعر إلى أخر باختلاف الأسلوب وروعة, البيان, ورقة المعاني, والألفاظ, والعبارات المنتقاة في أشعارهم, فنجد بعض الشعراء يقلد ما كتبه القدماء, وأخر مجددًا نتيجة للتطورات التي رافقت نواحي حياتهم المختلفة. ومدح الشعراء للخلفاء, والوزراء كان من خلال إضفاء الصفات الحسنة, والأخلاق النبيلة, وهذا ما لمسناه فعلًا بوساطة غرض المديح بصورة عامة بمدحهم للرسول الأعظم محمد (صلى الله عليه وسلم), وأصحابه (رضوان الله عليهم) , أو إضفاء صفات أخرى: كالكرم, والشجاعة, والتغني بالعطاء, وهي دلالة بلا منازع على أسمى آيات المديح, فضلًا عن ذلك الإعتزاز بهم في مواقفهم العظيمة والجبارة, من خلال الدفاع عن الحق, والتصدي للباطل, ولا بدّ لنا من القول أن كل ذلك مستمد

١- يتيمة الدهر في محاسن اهل العصر, لابي منصور عبد الملك بن محمد بن اسماعيل الثعالبي النيسابوري, تحقيق: أ. إبراهيم صقر, مكتبة مصر: ٤ / ٢٨٨.

من موروثنا العربي الأصيل, ولكن مع إضافة بعض الألفاظ التي أضفت على النصّ رونقًا وزخرفًا, فهنا يكمن التجديد للألفاظ, واستعمالهم للمعاني بطريقة مبتكرة جعلته يختلف عمّا كان عليه سابقًا.

ثانيًا: الرثاء :

غرض الرثاء من الأغراض المعروفة منذ العصور القديمة, أي من الأغراض الموروثة من القدم, وهو اضفاء الصفات الحسنة وتذكرها بعد موت الإنسان: " يسير مع المديح بخط واحد غير أن ما يفصلهما هو أن المديح تعداد مناقب الإنسان الحي, والرثاء تعداد مناقب الميت, فبعض الدارسين لفن الرثاء رأوا أن هذه المقارنة بالنسبة إلى الرثاء يخوضها عنصر الوفاء فيه, فإذا كان المديح يحتمل الصدق, وغير الصدق, فأن الرثاء غالبًا ما يتمتع بالصدق لكي يحمل معنى الرثاء"[1]. ونجد في هذا الغرض بعض الشعراء يعددون المآثر ويبالغون في الفجيعة كأن هذا الموت غير طبيعي فيمن يستحق أن يموت[2].

والمراثي مختلفة منها ما كان في الاساتذة, والفقهاء, أو ممن يرتبط بالشاعر برابطة العاطفة, أو الاحترام. ونجد هذه المراثي على شكل مقطعات شعرية. وأكثرها تتضمن آلام الشاعر, وحزنه, وفضل الفقيد[3].

١- الشعر في الموصل ابان القرنين الرابع والخامس للهجرة : ١٦٤- ١٦٥ .

٢ - ينظر: تاريخ آداب العرب, مصطفى صادق الرافعي, أخرجه: محمد سعيد العريان, ط ٢, مطبعة الاستقامة بالقاهرة: ١٩٥٤: ١٠٤.

٣ - ينظر: الشعر العربي في العراق وبلاد العجم في العصر السلجوقي, أواسط القرن الخامس- أواسط القرن السادس, علي جواد الطاهر, ط ٢, دار الرائد العربي, بيروت – لبنان: ١٩٨٥: ٣٩١.

فالمراثي تتضمن تأملات في الحياة والقدر متضمنة التشاؤم, واليأس, وآلام الشاعر , وأحزانه, ودموعه, فضلًا عن ذلك كله ذكر فضائل الميت بما لا يختلف عن موضوعات المديح بالكرم, والشجاعة, وحُسن الرأي, ثم تختتم بتعزية أهل الميت.

وكما هو معروف لدينا أن الرثاء في القرن الخامس الهجري يقسم على:

١- رثاء آل البيت : وهم ممن يصل نسبهم إلى الرسول الأعظم محمد (صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم), فلأهل البيت (عليهم السلام), نصيبٌ من تلك المراثي, فنجد الشاعر في رثائه لأهل البيت متوجعًا؛ لما أصابهم ولحقهم من أذى, وظلم .

ونجد ذلك متمثلًا بقول مهيار في مرثية لأهل البيت, وبلغه أنّ بعض حاسديه ينكر مدحه إيّاهم, ويدّعي عليه أنّه بما يظهر من المخالفة في الأصول بقوله [١]:

وبـحـيّ آل مـحـمدٍ إطـراؤه مِدَحًا وميتّهم رضـاه مـراثيـا

هـذا لهم والقومُ لا قـومـي هُـمُ جنسًا وعُـقرُ ديـارهم لا داريـا

إلاّ الـمـحبة فالكريم بـطـبعه يجـدُ الكـرامَ الأبعديـن أدانيـا

رثى مهيار الديلمي آل بيت النبي محمد (صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم), أن الحي منهم يثنون عليه, ويمدحون بذكر مناقبهم, وأن رضا ميتهم أن يرثوه, ووصف الشاعر أنه برغم أن القوم ليسوا قومه, وديارهم ليست دياره؛ لكن طبع الكريم أن يحب الكرام وان كانوا بعيدين عنه في النسب, والقرابة.

---

١ – **ديوان مهيار الديلمي: ٤ / ٥٤٦– ٥٤٧ .**

ويقول في أخرى يرثي أهل البيت (عليهم السلام), ويذكر بيان البركة بولائهم فيما صار إليه[1] :

يـا لـقَـــومٍ إذ يـقتلون عليّـًا وهــو للمَحْــل فـيهمُ قَتّــالُ

ويُسِرُّون بُـــغضَــهُ وهــو لا تُقـ بَــلُ إلاّ بـــحبّه الأعـمـــالُ

وتــحالُ الأخمارُ والله يـــــدري كـيف كانـــت يومَ الغدير تُـحالُ

وصف الديلمي في هذه الأبيات الفئة الباغية التي تجرأت وقتلت عليًا(عليه السلام), أنهم جحدوا فضله في محاربته الفقر, والقحط ؛ لأجلهم, وقد كانوا يضمرون حقدهم, وعداوتهم عليه, وعلى آل البيت(عليهم السلام).

يضاف إلى تصويره في ذكره فجيعة الدنيا وأهلها به برثاء الشريف الرضي ذي الحسبين أبي الحسن محمد بن الحسين الموسوي, إذ يقول [2]:

بــكر النعيُّ من الرضيّ بمـــالكٍ غايــاتِها متــعوّدٍ إقــــــدامَها

كلــح الصباحُ بموته مــن ليلــةٍ نفضت على وجه الصباح ظلامَها

صـدعَ الحِمــام صَفاة آلِ مــحمدٍ صـدْعَ الـرداءِ به وحلَّ نظامَهـــا

نُودي بقبيلة مالك أن الشريف الرضي قد توفي, ولذلك صور لنا في أبياته أجمل صور النعي والرثاء, عندما شبه الصباح بوجه كالح, كمن يقول : قد أظلم الصباح بموته, مشبهًا ليلة وفاته بأروع العبارات, عندما شبهها كالشجرة تنفض الأوراق على الأرض, ليستحيل الصباح ظلامًا حالكًا, واصفًا الموت صدع (آل هاشم), بموت

١ – ديوان مهيار الديلمي: ٣/ ٨٧.

٢ – المصدر نفسه: ٣ / ٣٧٦.

الشريف الرضي واصفًا إيّاه ب (الصفاة), وهي الصخرة الصلبة[1], ومشبهًا الرداءَ الذي كفن به بأنه قد صدع به, أو صدم.

٢- رثاء الفقهاء: يرثي بعض الشعراء الفقهاء؛ لما لهم من دور بارز في تثبيت أحكام الدين, المتمثلة بفقه العبادات مثل: فقه الصلاة, فقه الصيام , وفقه الزكاة, وغيرها من الأحكام.

متمثلًا بقول أبي القاسم عبد الله بن ناقيا البغدادي في رثائه للفقيه الشيرازي أبي إسحاق الشيرازي– إمام أصحاب الشافعي[2] :

أجـرى المدامعَ بالـدّمِ المـــهراق خــطــبٌ أقامَ قيامة الآمـــــــاقِ

مــا للّــيالي لا تؤلّــف شَمـــلها بــعــد ابن بجدتها ابي اسحـــــاقِ

إن قـيلَ مات فلم يَمُـت من ذكره حَــيٌّ عــلى مَـــرّ اللّيـــــالي باقٍ

وصف الشاعر ابن ناقيا في رثاء ابي اسحاق الشيرازي عندما مات أنه خطبٌ وبلاء أجرى الدم والدمع معًا, حتى كاد أن يضر مقلة عينيه من شدة البكاء, وان فراق ابي اسحاق الذي كان لا يبارح قومه قد جعله لا ينام الليالي, وهنا نجده واصفًا صديقه أنه حتى بموته فأنه لم تمت ذكراه على مرّ الليالي.

٣- رثاء القضاة: قد كان للقضاة نصيب من تلك المراثي, ومن ذلك قول الباخرزي في رثائه للقاضي الهروي[3]:

قاضٍ مَضى لــسبيله لمّــا قَـضـــــــــى ما كان أوّلَ من قضى ثمَّ أنقضَى

---

١ – المصدر نفسه: ٣/ ٣٧٦.

٢ – الجمان في تشبيهات القرآن, ابي القاسم عبد الله بن ناقيا البغدادي: ٢٩.

٣ –الباخرزي (حياته وشعره وديوانه): ١٢٥–١٢٦ .

ودهشتُ حـــتى لست أدري أنّـــــــــــه ماضٍ قضى أو أنّه قاضٍ مضـَى

يقول الشاعر لما قضى أي مات, ولم يكن أول من يموت, وأنه ليس أول قاضٍ يموت, لكن على الرغم من ذلك فقد فوجئت بموته , فالرثاء هو غرض تشوبه عاطفة الحزن والأسى لفقد الميت[١].

٤- رثاء الأبوين: وهي المرثيات التي قيلت لفقد الأبوين, وتصوير تلك الفاجعة بأروع الأبيات الشعرية, وأكثرها حزنًا لفقدهم , ومنها المتمثلة بقول الباخرزي[٢]:

هأنـــذا ثـــاويًـــــا بمضيـــعةٍ ووالـدي فـــي ضريـــحهِ ثـاوٍ

قد كان للدّهر رونقًا, فمـضـــى فكـلـــه رونـــــقٌ بـــلا واوِ

عبر الباخرزي عن فجيعته بفقد أعز شخص على قلبه ألا وهو والده, واصفًا لنا أن بموت والده قد أصبح تائهًا لا يقر له قرار, فوالده الذي كان يضيء ويشرق في حياته قد مات, وظل هو يعاني ضيق الحياة وكدر العيش من بعد موت والده.

ولا تقل الصنعة في شعره في رثاء أمّه عن شعره في رثاء أبيه, وإن كانت العاطفة أضعف, فنراه حين يخاطبها خطابًا متكلّف القول نراه يرسل كلامًا يشبه الرثاء[٣]

أو والدتـــي بـــــعُدتِ على التّداني فيْـــا عجبًا مـــن الدّاني البعيـد !

وكان لـــنا دعاؤك فـــي صـــعود فكيف انحطَّ من تحتِ الصَّعيـــد ؟

---

١ – ينظر: اتجاه الشعر الإسلامي في العصر العباسي الأول, عبد الله بن إبراهيم الجهيمان, رسالة ماجستير, جامعة الأزهر بالقاهرة: ١٩٧٤: ٦٧.

٢ –الباخرزي (حياته وشعره وديوانه): ٢١٢.

٣ – المصدر نفسه: ٥١.